



عندما تتغير القلوب، يتغير الكيان بأسره، فتتغير الآمال وتتغير الرؤى، وتتبدل أشكال الناس، بل يتبدل الحلم والهدف.
بين الصواب والخطأ، بين الحسن والسيء، يزيد العمل الصالح ويقل.. تزيد الابتلاءات أو تقل، تقلبات دائمة، تظهر على
الإنسان سريعا في كلامه وأفكاره وحياته وعلاقاته..

وعندما أتحدث هنا عن (التغيير).. أقصد ذلك التجلج في الصدور، والتنوع في رؤية الوجوه المختلفة، لا (التقلب) فإن التقلب
إما على الحق أو الباطل، كما كان يدعوا النبي "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك"
إنما التغيير هو التردد بين الرؤى والقناعات، تبدل الأحلام، تغير من نحبهم، أتحدث عن اليأس والأمل، والخيانة والوفاء،
أتحدث عن تغير في الفكر السلبي ناتج عن مشاعر توجهه نحو الصواب.
من داخل القلب وجوه كثيرة متغيرة، يوم مع الحق والثبات، ويوم ينزلق مع الغفلة والشهوات، نفس أمارة، وأخرى لومة
تفترشان نفس القلب فلمن الغلبة ليصل إلى النفس المطمئنة؟!

ومن داخل القلب المخطئ، قلب يغير وجهه بين لحظة وأخرى، وقد يظل في لهوه حتى تأتيه آخر لحظاته وهو على غوايته. يتغير القلب داخل وجهه المتعددة ليتقلب بين شهواته، يطوف وقد يستقر في كل مرة على الخطأ...!!.

وعندما تتغير القلوب، تكشف عيوب الأحلام الفائمة، والمشاعر الباهتة، لا يستشعر الفرق سوى القلب النقي التقى، فيرى ماضيه - على الوجه الآخر-. وكأنه يقرأ ما فات من عمره، قد يكون موفقاً فيه أو خائبا، شقياً كان أو سعيداً عندما يتغير القلب نحاف ما كنا لا نخشاه، ونحب ما كنا نخاف أن نقترب منه، نلقي الماضي خلفنا، بعد أن تغير كل شيء. قد يتغير القلب نتيجة اكتئاب حل به فضاقت عليه الدنيا بما رحبت، فقرر أن يتخذ وجهها جديداً ولوناً متغيراً لحياته التي مل منها، أو نتيجة فرحة زائدة وانبهار مبالغ فيه بواقع معين دخيل على واقعه، فيحب ذلك الواقع الجديد ويبدأ قلبه ليتحول إلى وجه آخر سلبي تابع.

وقد يتغير نتيجة فقدان الأمل، أو لخلوه من الهدف، قد يتغير حسب الهوى، أو حسب مواقف مختلفة يشكل تكرارها عليه تغيراً وعادة!

إن القلوب لها حساسية شديدة، تتأثر بكل صغير وكبير، تتأثر بالنظارات والكلمات، تجرحها الكلمة السيئة، يحييها الكلم الطيب، يروي بنور حدائها الحب في الله، تترقرق بالبسمة الصافية، تغسلها دموع الفرح، وتقتلها دموع اليأس والعصيان، ومن الهوى ما يجعل حدائها هشيماء لأن لم تغن من قبل!

وعندما تتغير القلوب تتلون الدنيا بلون مختلف مما كان، نرى الحقائق بمشاعر جديدة، قد تكون قاسية بعض الشيء، أو صادمة لما كنا نتخيله من قبل، وبينما يظن في لحظة أنه قد ارتاح وببدأ حياة جديدة بتغيير كل اهتماماته ومشاعره واهدافه، تظهر أمامه حوادث جديدة، ابتلاءات جديدة يلزمها صبر جديد وثبات جديد!

وقد يكون تغير القلب تغيراً مخيفاً يؤدي به إلى الهلاك، ويبدأ في التحول إلى "التقلب" لا "التغير" حينما يكون التغير في وادٍ سحيق عن طاعة الله، تنزلق نفسه مع الشيطان ليتحول القلب الخائر إلى قلب مخدول، مشحون بالهوى، مندس بالخائث، ملوث بالأخلاق الذميمة.

يتقلب من خسران إلى خسران ومن كبيرة إلى كبيرة، ليرى الماضي مظلماً، والمستقبل مجھولاً، فيقوی فيه سلطان الشيطان، ويضعف سلطان التقوى والإيمان، ويمتلئ القلب بدخان الهوى الدنيوي، يتلاشى النور، ويصير كالعين الممتلة بدموع اليأس الجافة، لا ترى ولا تذرف دموعها، ولا يؤثر فيها شيء! حذار من التغير الذي قد يؤدي إلى التقلب!!

وعندما تتقلب القلوب ترى شطر الحياة الآخر، تتعرف على كل لغات القلوب، تتالم تارة، وتبتسم تارة، تبكي تارة، وتدعى تارة أخرى..

إن القلب إذا صلح على أي وجه كان مما يحبه الله ويرضاه كان أسرع الطرق لباب الجنة المفتوح أمامه.. وإن فسد على أي وجه كان مما يبغضه الله ويستخطه عليه، كان الانزلاق أسرع إلى الوادي السحيق.. فعلى أي وجه ستكون خاتمتها؟

إن القلوب هي التي توصف بالحياة أو الموت، وبناء عليها توصف الجوارح، وفي الحديث: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكُمْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ"، فهي الفيصل وهي المعيار النهائي "ألا إن في الجسد مضفة إذا صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"

وبالقلوب نحب ونبغض، نعطي ونمنع، نبادر الناس فهما وإدراكاً ومشاعر واستجابة وتواصل وترتبط.. وكلما تغيرت قلوبنا يتغير معها كل ذلك..

من قلب إلى قلب، ومن حياة إلى حياة، هو عمر واحد وقلب واحد، ينبغي الاهتمام به وإعداده ورعايته، فهو عمر وحيد يمضي، وهو كتاب يكتب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فإذا ان يظل المرء متنقلًا بين تغيرات قلبه ويفاجئ

بحصاذه الهزيل في النهاية، وإنما أن يثبت على التقوى في حياته، ليغتنم ثوانيها التي تمضي وأنفاسها التي تعد..

المسلم

المصادر: